## – 1 –

# أوجه عديدة للخيانة

تتبدل الأماكن المألوفة وتتغير، لكنّ القول الإيطالي المأثور إنّ الترجمة فعل خيانة، والقائم على التلاعب بالألفاظ بين كلمتي مترجم وخائن (traduttore, traditore)، تبقى على حالها مع مرور السنين دون تغيير، جاثمة على صدور المترجمين، كفزاعة تثير ذعرهم وإحباطهم، مما يدفع للاعتقاد بأن المترجم وغد خدّاع، أخبث من أبأس الأغبياء. قبل تقديم البيّنة والإقرار بالتهمة، دعوني أتقصى مكامن هذه الخيانة وبحق من تُرتكب. يمكن لنا بعدها نحن المترجمين الانسحاب إلى عالم النسيان مجدداً، المليء بالخدم الصامتين، كما لو أنّ دورنا قد انتهى، حسب قول الأمير سيغيسموندو في نهاية مسرحية كالديرون «الحياة حلم» بعد إهداء البرج الذي سُجن فيه إلى الشخص الذي حرره: «الخيانة وقعت، لا حاجة للخائن بعد الآن».

لنُخضع عملية الترجمة لتحقيق قضائي ونضع طرق الترجمة ووسائلها المتعددة في عين المجهر، ونحاول من خلال هذه العملية تقصي مختلف أشكال الخيانة التي قد تلتصق بفن الترجمة. أتقصّد استخدام كلمة فن وليس حرفة لأنه يمكن تعليم الحرفة ولكن لا يمكن تعليم الفن. يمكنك تعليم بيكاسو كيف يمزج ألوانه لكنك لا تستطيع تعليمه كيف يرسم آنسات أفينيون. ثمّة الكثير من النقاط التي يمكن من خلالها إلصاق تهمة الخيانة بالترجمة، ولا مناص من تشابك هذه النقاط بشتّى الطرق، مما يستوجب مراجعة عامة لكشف النقاب عن أوجه الخيانة العديدة التي يزعمها القول الإيطالي المأثور.

من أهم أوجه هذه الخيانة خيانة الكلمة، لأن الكلمة هي الجوهر الحقيقي

للغة، مجاز كل ما نراه ونحسه ونتخيله. وفي هذا الإطار لدينا أيضاً خيانة اللغة، اللغة المترجم منها واللغة المترجم إليها (أحاول تجنب مصطلح «اللغة الهدف»؛ فبحكم أنني من قدماء المحاربين، وأثناء خدمتي كجندي مشاة فقد تعلمت إطلاق النار على الهدف وإرداءه قتيلاً، إن حالفنا الحظ). اللغات هي حصيلة الثقافة، أو العكس صحيح بحسب بعض علماء الأنثروبولوجيا الجريئين. خيانة الثقافة تصبح تلقائية لأننا نخون كلماتها وكلامها، إلى جانب عناصر هامشية أخرى عديدة خلال مجمل عملية الترجمة.

ثم نأتي إلى الخيانة الشخصية، خيانة الأشخاص المنخرطين في عملية (جرم) الترجمة. الضحية الأولى هي بالطبع المؤلف الذي نترجم عمله. هل يمكننا يوماً إعداد نسخة مختلفة الألوان مما كتبه (كتبه/ كتبته كما يرد في وثائق الأمم المتحدة)؟ هل يمكننا استحضار ما شعر به المؤلف لحظة كتابة الكلمات التي نترجمها؟ إذ إننا كمؤلفين نخون تلقائياً جمهور القرّاء المتنوع ونمرر في الوقت نفسه مقداراً ما من الخيانة التي قد يكون المؤلف اقترفها بحقهم في العمل الأصلي (ما لم نهملها في صباح صقيعي تماماً كما أهملنا الشعر). أخيراً والأدهى أننا نخون أنفسنا. نضحي بأجود فطرة لدينا من أجل تقليدٍ ممل خوفاً من خيانة المهمة الموكلة إلينا. التواري المحتّم على المترجم، التواري الذي غالباً ما يعتبر مثالياً، لا يعني في نهاية المطاف سوى حبسه في برج سيغيسموندو. لا بدّ أن هذه الخيانة الأخيرة تتفوق على جميع الخيانات الموصوفة هنا وتعتبر أشنعها.

الكلمات غدّارة، غدرها يفوق بأشواط خيانة أي مترجم. من البديهي والواضح أن الكلمات مجرّد مجازات واستعارات للأشياء. يظهر هذا جلياً في الحلقة اللاذعة من الجزء الثالث من «رحلات غَلِفر» حين يصل الرحالة إلى مدينة لاغادو ويزور الأكاديمية الكبرى. يستعين كبير الكهنة سويفت هنا بالمخترعين لشرح خطة إنقاذ رئاتنا[1] من خلال التخلص من الكلمات في

1- إنقاذ رئاتنا: في رواية «رحلات غَلِفر»، وردت فكرة أن للقضاء على الكلمات فوائد صحية، لأن كل كلمة ننطقها تشكل إلى حد ما تقلصاً لرئاتنا بسبب التآكل، وبالتالي تقصر حياتنا. وفي هذا إشارة إلى رأي لوكريشيوس في قصيدته «طبيعة الأشياء»، بأن الصوت مصنوع من جزيئات مادية، لذلك كثرة الكلام تسبب بحة الحلق. (المترجمة)

التواصل الشفهي، «نظراً إلى أن الكلمات هي مجرد أسماء للأشياء، سيكون الحل الأنسب هو أن يحمل كل الناس معهم الأشياء الضرورية للتعبير عن الموضوع الذي يتحدثون بشأنه[2]». إلى جانب إطالة أعمار البشر، يقلّص هذا الحل أيضاً الحاجة إلى جميع اللغات الحيّة حول العالم. بل قد ننجح بإعادة إعمار برج بابل. ومن المرجح أن سويفت كان يلمّح إلى الفوارق الطبقية هنا، فالرجل الميسور الذي يمكنه الاستعانة بخدم لحمل أشيائه يصبح أفصح من رجل فقير يمكن حمل كل أشيائه في كيس بسيط. في العالم الواقعي، يمكن للثري الجامعي التعبير عن نفسه ببلاغة ووضوح أكثر بكثير من رجل فقير أمي.

الأمر يتعدّى ذلك، إن كانت الكلمة هي مجاز شيء ما، لماذا هناك إذاً عدة مجازات لكلمة واحدة تدور جميعها في فلكها؟ نحن هنا مباشرة أمام عاقبة بابل الوخيمة. لو أُتيح المجال أمام ماما لوسي لتتكلم، لانتشرت لغتها المنقرضة وصار لها اشتقاقات عديدة تفوق عدد النغمات التي نسمعها في جوقة زقزقة عصافير من نوع واحد. يتركنا هذا في خضم كلمات متخبطة تدل على شيء واحد. لا يمكن للحجارة أن تُسمّى حصى، هل تتطابق الكلمتان لمجرّد أنهما تدلان على الشيء نفسه؟ بما أن فلوبير قد يقول كلمة حصى أو يفكر بها عندما يلتقط إحداها، هل كلمة حجارة تعبّر عن فكرته عندما نترجمه؟ كل ما بوسعنا قوله أن الترجمة هنا خانت المعنى التام والواضح لماهية الحصى في ذهن المؤلف، من دون محاولة في هذا المثال الحجري لاستحضار المعاني الملازمة لبطرس والباباوية. سيترك ذلك النقاش حول لغة لاغادو لحماقات بوفار وبيكوشيه[3]، سنترك لهما أيضاً تحليل أسباب رؤية الصائغ للألماس على أنه حجر، فيما سارق المجوهرات يراه صخرة.

لم تُقترف الخيانة هنا فقط بحق الشيء المسمّى وإنما بحق الكلمة نفسها أيضاً. أثناء مسيرة تقدمها (تطورها؟)، تعمل اللغة على تحميل

2- «رحلات غَلِفر»، جوناثان سويفت، ترجمة آلاء النحلاوي (2020)، الصفحة 254 (المترجمة)

3- بوفار وبيكوشيه: بطلا رواية بنفس الاسم لفلوبير، ويعتبران أحمقين ظريفين. (المترجمة)

الكلمة مختلف أنماط العوالق الثقافية، حارفةً إياها نحو مسارٍ مختلف عن الكلمة في لغة أخرى تصف الشيء نفسه. ثمّة في اللغات كمٌ هائل من المصطلحات المستخدمة للدلالة على الشيء نفسه، ومن خلال هذا التنوع بالذات، تستجدي المصطلحات أي احتمال لاكتشاف وتأكيد الحقيقة الفريدة للشيء المذكور. قد يكون هذا خبراً مفرحاً للمعتقد السائد حالياً حول اللامحدودية، غير أن الإنسان العاقل يهوى المعرفة، تماماً كما يوحي اسمه، وهذا ما جعلنا ما نحن عليه اليوم وما سنكون عليه في الغد إن اكتسبنا المعرفة اللازمة. قد يكون هناك في عالم الألفاظ شيء مشابه لمبدأ هايزنبرغ المتعلق باللايقين، أي أننا في كل مرة نسمّي الحجر الصغير حصاة نكون قد صيّرناه شيئاً مختلفاً عن الحجر أو الكأس. يضعنا هذا أمام سؤال عن إمكانية أن تكون الحصاة حجراً صغيراً أو أن يكون الحجر الصغير حصاة، وإن كان أياً منهما ذلك الشيء الصلب الذي ننظر إليه على الأرض، ليعلّمنا أنه حتى لو جرى استنساخ شيء ما فإن الكلمة التي تميزه لا يمكن استنساخها وأي محاولة لإعادة إنتاجها في لغة أخرى تعتبر فعل خيانة.

تبدو بعض المفاهيم خصائص حصرية للغة ما ولا يمكن خلقها على نحوٍ صحيح في لغة أخرى. عندما نواجه معضلة اجتراح كلمة صحيحة في الإنجليزية نلجأ إلى الفرنسية ونقول «a certain je ne sais quoi – لا أعرف على وجه الدقة». إن قلنا معادلها في الإنجليزية «a certain I don't know what» يبدو التأثير نافراً ومصطنعاً. عندما نستعير من لغة أخرى لإثراء لغتنا، يحدث فعل الخيانة غالباً في أول خطوة في هذه العملية، إن لم تكن خيانة للمعنى فهي حتماً خيانة لوقع الكلمة. على الرغم من سهولة إعادة إنتاج وقع الكلمة الفرنسية «لانجري lingerie» بالإنجليزية وإمكانية الاقتراب جداً من إحداث الوقع ذاته، إلا أن معظم الناس سيبالغون بفرنستها وسيقولون «لاونجري»، صوت يستحق صرخة دبليو سي فيلدز المتهكمة وهو يقول «حاسنون». خيانة اللغة في كثير من المرات هي خيانة للكلمات وفي الوقت نفسه انعكاس للعوائق الناشئة عند التواصل بين الثقافات. نميل إلى استيعاب الأذواق والأحاسيس والمنعكسات الأجنبية ودمجها في بيئتنا بعد إحداث التغييرات اللازمة. اسأل شخصاً من نيويورك كيف وجد غريغور

سامسا نفسه عندما استيقظ وسيكون الجواب الحتمي وجد نفسه صرصوراً عملاقاً، لأن الصرصور أشهر حشرة في مدينته. كافكا ببساطة أسمى الهيئة التي استيقظ عليها سامسا حشرة ضخمة «ungeheuern Ungeziefer»، ثم أسهب في وصف ما يبدو بوضوح خنفساء ذات درع صلب. تأثير الواقع المحلي قوي للغاية بالنسبة لشخص من نيويورك مما يحول بينه وبين صياغة مفهوم أقرب أو ترجمة أدق. يمكن اعتبار هذا بوصفه خيانة ناجمة عن ثقل تفرضه ثقافة أخرى.

تلتحم كل هذه المسائل لتشكّل خيانة غير مباشرة للمؤلف. إنها خلاصة كل هذه العوامل: اللغة، الثقافة، وكلمات الأفراد. هذه العوامل في الواقع متراصة ولا يمكن فصلها، والمؤلف هو منتجها، ينطبق الأمر ذاته على ما يكتبه. لا تتعدى حريته وأصالته تخوم ثقافته. إن كان سيخون ثقافته، فهو يخونها من الداخل، من معرفة عميقة ببواطنها، بينما المترجم يخون الثقافة من الخارج، من وعي مكتَسب تأملي غير انعكاسي.

بوسع المؤلف، في نطاق الحدود الثقافية، كفرد، ويتعين عليه، في الواقع، شرح نفسه قدر الإمكان كي يتسنى له تمييز نفسه وفنه عن الأماكن المألوفة، مبيناً طوال الرحلة المكان الذي جاء منه، وما من سبيل لفعل هذا سوى باستخدام اللغة. الحالة عكسية تماماً بالنسبة إلى المترجم. ليس بوسع المترجم، ولا يتعين عليه، التمييز بينه وبين الثقافة المطروحة أمامه. إن حدث هذا فستكون الترجمة بحق فعل خيانة. عليه تنظيم كلماته بطريقة لا تناقض قصد المؤلف. لا توجد إشكالية في الترجمة تفوق هذه الإشكالية، إذ إننا نحاول ترجمة شيء إلى لغتنا وثقافتنا عمد المؤلف سابقاً إلى ترجمته إلى كلمات في ثقافته وصياغتها لتبدو كلماتنا نحن. يا لها من خيانة. المهم هنا هو تحديد مستوى الخيانة هل هي خيانة عظمى أم صغرى، خطيئة بشرية أم عرضية. ثمّة أشخاص، على غرار نوبوكوف، ينظرون إلى الترجمة بوصفها جرماً يقتصر نطاق الحكم عليه فيما إذا كان جناية أم مجرّد جنحة، وهناك الكثير من النقاد الذين يختالون في مشيتهم بينما الشرطة تسوقهم أمام العامة بعد إدانتهم.

وفي موازاة كل ما يجري، والمسائل التي يتعين على المترجم أن يعيها

بالكامل، يبرز خطر ارتكاب المترجم لأتعس خيانة على الإطلاق، خيانة نفسه. المترجم، وينبغي أن نعرف هذا تماماً، هو كاتب أيضاً. في الحقيقة، يمكن تسميته الكاتب المثالي لأن كل ما عليه فعله هو الكتابة؛ فالحبكة والموضوع والشخصيات وكل العناصر الأساسية الأخرى موجودة سلفاً، لهذا عليه فقط الجلوس والكتابة. غير أنه قارئ أيضاً. ينبغي عليه قراءة النص بدقة لمعرفة ما يدور. في هذه الحالة يتلقى إرشادات وتعليمات أقل من النص. هناك فكرة شائعة مفادها أنه لو كان لكتاب ما 10,000 قارئ، فإنه يصبح 10,000 كتاباً مختلفاً. المترجم ما هو إلا واحد من هؤلاء القرّاء، وعلى الرغم من ذلك، عليه قراءة الكتاب بطريقة تسمح له بالقراءة بالإسبانية والإنجليزية في الوقت ذاته طيلة رحلة قراءة الكتاب، والنتيجة أن قراءته للكتاب هي أيضاً كتابة له. تصبح قراءته إذاً القراءة التي ستنتج 10,000 نسخة مختلفة من الكتاب في حال حدث وبيعت كل النسخ، ونادراً ما تباع كل النسخ، ويقرؤها كل هذا العدد من الناس.

ينبغي على مترجمنا أن يعي أن هذا أقصى ما يستطيع فعله من هذا المكان وفي هذا الوقت، وعليه مع ذلك أن يدرك أن عمله، بمعنى ما، غير مكتمل. على الرغم من رضاي عن ترجمتي حالما أنجزها (كما ينبغي على المترجم أن يكون)، أقرأ بعد سنوات النص المنشور فتنتابني رغبة بتحسينه. عندما يبدأ المترجم محاولة إيجاد حل منطقي، عليه الاقتداء بشجاعة الإسكندر عندما وصل إلى إقليم فريجيا وقطع عقدة غوردية بسيفه كتجسيد لما يسميه أورتيغا اي جاسيت «السبب الحيوي». يجب على المترجم ألا يخون حدسه، حتى لو عرّضه هذا لذم النقاد، إلا أنه سيكون أقرب إلى الصواب، والأهم أنه بهذا لا يخون نفسه. الثقة الحذرة بالنفس ضرورية للمترجم تماماً كما هي ضرورية لرجل في دورية مشاة. عليه أن يكون يقظاً، على جميع الأصعدة، وتذكّر أنه بإضافة حرف صغير لا يلفظ إلى كلمة auteur يجعلها hauteur ويغير المعنى من مخرج سينمائي إلى غطرسة.

يجب على المترجم أن يستخدم بفعالية ذلك الغول الذي يخيف الفني الخجول: الحكم التقديري. في الترجمة كما في الكتابة، التي هي كتابة كما أسلفنا، الكلمة المناسبة أفضل من كلمة مناسبة بدرجةٍ أقل حتى لو كانت

كلمة فصيحة. يتعين على المترجم هنا أن يقدم على فعل جريء ويضرب أيضاً بسيف الإسكندر. الترجمة قائمة على الاختيار وهو اختيار شخصي في المحصلة. اكتشفت منذ زمن بعيد أمراً مضحكاً: إن فكرت ملياً بكلمة ما، أي كلمة، لوقت معين، تصبح الكلمة شيئاً غريباً بلا معنى ومثيراً للسخرية. أظن أن هذا نوع من التشويه، والإدماء للكلمة المسكينة وإفراغها من جوهرها ومن سوائل جسدها، ورميها كفضلات جافة تصلح لمجموعة من خمسة أحرف في رسالة مشفّرة. عندما نستفيق ونستعيد معنى الكلمة، فإننا بمعنى ما، نفك شيفرتها. هذا أقصى ما يمكنني الذهاب إليه لإعادة الترجمة برمتها إلى المنطق لأن جلّها ينبغي أن يعتمد على فطرة مكتسبة، مثل الفطرة التي نعوّل عليها عند قيادة السيارة، أو السبب الحيوي حسب وصف أورتيغا.

## – 2 –

## في السعي وراء كلمات أخرى

اسمحوا لي أن أقترف الخيانة بحق نفسي الآن وأعترف بأن الترجمة لم تكن المهنة التي عقدت العزم على احترافها، ولم أهيئ نفسي لها بالتدريب الواعي أو التفكير المطول. هناك قول إسباني مأثور مفاده أن الشيطان يوسع معارفه مع التقدم بالعمر وليس لمجرد أنه شيطان. توصلت مؤخراً إلى استنتاج بأن ذكائي الذي كنت أتباهى به يتجسد ببساطة في حقيقة أن لي باعاً طويلاً جداً يخولني كبح عجرفتي وتذكر أن لير كان عجوزاً قبل أن يصير حكيماً. لطالما فكرت بأنني تعثرت بالترجمة لأنها كانت في طريقي، بمحض المصادفة، لكن عندما أتأمل ما حدث وقد ازددت حكمة، يمكنني القول إنني تمتعت بخصال معينة تناسب تماماً متطلبات الترجمة، وشحذت هذه الخصال من خلال الممارسة.

بوسعي العودة للوراء إلى لحظة محددة في حياتي، لحظة تجلٍّ، إن شئت، لحظة وصلت فيها إلى الإدراك الكامل لذاتي. ابتداءً من تلك اللحظة، صار الوجود تقريباً خيطاً متصلاً من الذاكرة، شيئاً لا يزال يثير استغرابي كلما تأملت حياتنا هذه كما هي مجدولة، بساعاتها وأيامها وسنواتها. كنت تقريباً في الثالثة من عمري، أسير على طريق بينو هيل، عائداً إلى منزل العائلة شمال هانوفر في نيوهامبشير. لا أعرف أين كنت، أو لماذا ذهبت إلى هناك، ربما ذهبت إلى دمشق، لكنني لم أكن قط واثقاً من نفسي تماماً مثل شاؤول العجوز. ذاكرتي عما جرى قبل هذه اللحظة ضبابية تماماً، وهذا ما غدت عليه على مدار السنوات، مقتطفات من هنا وهناك تعود بطريقة مبهمة

ومتقطعة كأنها ومضات من حلم. كانت تلك اللحظة الغريبة من الوجود حينما نكون فيها كالغرباء عن أنفسنا الحالية اليوم. معظم ما أتذكره مما رأيته قبل ذلك التجلي الخفي على طريق بينو هيل أدين به لوالديّ وللآخرين ولما أخبروني عن ذكرياتي قبل تلك اللحظة. يمكن تلخيص زبدة تلك الفترة بما يشبه ما حدث للممثل تشيكو ماركس في دور تشيكوليني في فيلم «حساء البط Duck Soup» عندما يسأله المدعي، أدى دوره تشارلز بي ميدلتون، عن سنة ولادته ويشرح له تشيكو أنه لا يتذكر، فقد كان مجرد مولود صغير.

في خضم هذا الوعي الذي يكتنفه الكثير من الغموض، نبدأ بالإصغاء والكلام. عندما وصلت إلى الإدراك التام لذاتي في الثالثة من عمري، بدأت تعلم الكلام وكان بجعبتي بعض الكلمات الإنجليزية. تعلمت اللغات الأخرى لاحقاً من خلال الاكتساب الواعي. بيد أنني في تلك الصحوة الوجودية، عندما عدت إلى المنزل من حيث لا أعرف على ذلك الطريق، بدوت عاجزاً عن تذكر مجريات اليوم الذي قبله أو قبل ذلك اليوم. الجزء الغامض من ذلك الزهايمر العكسي كان اجتراحي لكلمات وأسماء معينة خلال تلك الأيام السابقة، أجهل ويجهل الجميع مصدرها. إحدى هذه الكلمات كانت لا تزال تلازمني عندما ذكروني بها، وظلت تسحرني على الدوام. الكلمة هي magotso، أو شيء يشبه هذه التهجئة، وهي كما يبدو بجلاء كلمة قد أقولها أثناء عبوري بمقبرة.

كنت بالكاد قادراً على اختراع كلمة منطقية للمقبرة وتشويهها لتغدو على هذا الشكل النافر الناجم عن اجتهاد طفل يتعلم الكلام. قد تكون ارتداداً تقهقرياً لآدم، الذي وفق سفر التكوين، وُهِب الامتياز الإبداعي المذهل بتسمية الأشياء؟ ربما عندما حلّت اللحظة الحزينة لولادة هابيل. أو ربما بعض أثر مما قالته لوسي؟ قد تكون مجدداً تنويهات مبكرة عن الفناء والموت استحضرها تنبؤي بمعرفة اللاهوتي كيركغور؟

ثم كانت قطتي الأولى، ملكة رمادية جميلة من النوع العتّابي، أنجبت ذرية من جميع الألوان والأنماط، بحسب توم المتوفر في تلك اللحظة، جاءت القطة وسكنت معنا لسنوات. يجب أن أعترف بأنني اعتقدت حينها أن كلمة «عتّابي» مثل كلمة هرة، مرادف لكلمة قطة. نسمي ذلك النوع القط النمر.

أسميتها كدري، اسم لاتيني جميل؛ ظل مصدر اختراعي لهذا الاسم لغزاً محيراً. لربما محاولة ما لإعادة إنتاج صوتها وموائها. كان هذا تعميداً ظاهرياً غير واعٍ موفق للغاية، وأكثر بكثير من الاسم الذي عُمّدتُ به بعد سنوات طويلة، جداً، خلال مرحلتي الواعية. اقتنيت لاحقاً قطة أخرى جميلة من نوع العتّابي أيضاً لتقاسمني مسكني الضيق في شارع سوليفان في القرية. أسميت هذه القطة كاتسو، تحت تأثير فيلم فاتسو بلا ريب. كان بإمكاني اختراع اسم أفضل، لا سيما بعد خدمتي في إيطاليا لسنتين ونصف خلال الحرب. لم أكن مدركاً لما أفعله على الأرجح، خاصة أن ثمّة اختلافاً في التهجئة، وأن الإيطاليين الجنوبيين يميلون للفظ الأحرف الساكنة في أول الكلمة.

تشير هذه النوادر الشخصية الصغيرة إلى أنه للكلمات أي عدد من المعاني المحتملة لدى كل شخص حيث إنها تستقر في اللاوعي وترتبط بتجربة ما من الطفولة. قد يغوص السيد تشومسكي أكثر في احتمالية أننا قد نحمل قاموساً غامضاً عن بعد في حمضنا النووي. تتضاعف المشكلة عند ترجمة الكلمات. أمامنا كلمة تخص المؤلف ونود ترجمتها إلى كلمة تخص المترجم. وكما هي الحالة دائماً في الترجمة، يستدعي هذا اتخاذ خيار واحد من بين عدة مرادفات. في الحالة المثالية، يكون اختيار المؤلف للمرادفات في لغته مبنياً على قرار واعٍ ذي غاية محددة. لكن في معظم الحالات، وكما ينبغي، يكون الخيار طَبيعياً وعفوياً: «هذا ما أريد قوله». يتوجب على المترجم أيضاً اختيار الكلمات انطلاقاً من هذا التوظيف الطبيعي للمعنى: «هكذا نقولها بالإنجليزية». إلى جانب ذلك، يجب على المترجم أن يكون يقظاً ومدركاً لحقيقة أنه هو والمؤلف لديهما كلماتهما «الخاصة». يبدو من السهل مطابقة كلمات مثل (كلب/ cão/ dog) ومتابعة الترجمة. ما يعنيه الكلب بالنسبة لي قد يختلف عما تعنية كلمة cão بالنسبة إلى أنطونيو لوبو أنتونيس، على الرغم من أنه ينبغي عليه أن يكون راضياً في الاستخدام الشائع عن كلمة cão بقدر رضاي عن كلمة كلب/ dog.

يمكن لهذا المفهوم الشخصي عن اللغة أن ينطبق على الحياة نفسها. من وجهة نظر الفرد، الحياة توجد فقط بمقدار شعور الفرد بها وتصوره عنها. يقودنا هذا إلى أن الحياة عبارة عن فكرة، كلمة، باختصار، مجاز للوجود

الواعي ولظروفنا على مدار حياتنا. وقبل حكمنا القاتل على حصة المترجم من الخيانة عند وقوعها: والحكم عليه بالسجن في برج سيغيسموندو أو في قبره، ينبغي أن نتذكر أيضاً أنه «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللّٰهِ. وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللّٰهَ. هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللّٰهِ» (إنجيل يوحنا 1:1). حتى كلمة «كلمة» في كلام اللّٰه استُخدمت وتُرجمت بطرق مختلفة، فالإغريق المفكرون المحبون للمنطق ترجموها إلى (logos) بينما الرومانيون المفعمون بالحيوية ترجموها إلى (verbum). حتى اللّٰه إذاً، مثل الوجود، هو ترجمة غامضة، وهذا ما يفسر تلاوين وليم جيمس. عند الوصول أخيراً إلى مرحلة النطق باسم اللّٰه الغامض، يجب أن نترجم الاسم، أيضاً، ما لم نقبله كما نقبل اختصار عبارة «توصيل مضمون في يوم واحد» التي تظهر كعبارة تجديفية على بعض الشاحنات. وهناك أشخاص ضعيفو السمع يؤكدون أن اسم اللّٰه، في الواقع، هو هاورد، كما هو وارد في الآية: «أبانا الذي في السماوات. ليتقدس اسمك» لا أفهم كيف لشخص أن يكون ملحداً بإله اسمه هاورد ويمكنه أيضاً تفسير كل هذا التخبط الجاري في الكون.

الأسماء أحد هموم الترجمة وعادة ما يتضح مدى استحالة ترجمتها. معظم الأسماء المسيحية وأسماء العهد القديم لها مقابل محلي حيثما يحظى الكتاب الجيد بالتقدير؛ تشارلز يصبح كارلوس؛ جون يصبح خوانسيتو أو جوني، وهكذا. تحمل هذه الأسماء مدلولات قديمة إنجيلية أو كلاسيكية، ليس هذا فحسب، بل إنها أيضاً تكتسب أسماءً جديدة ومتجددة بشكل مستمر. هناك غالباً فوارق ثقافية طفيفة بين الأسماء، والألقاب على وجه الخصوص: عبارة good – time Charley كناية عن الشخص المرح حسن المعشر، وعبارة Johnny – come – lately كناية عن الوافد الجديد، Pedro por su casa كناية عن المتطفل الذي يتصرف كأن البيت بيته. ولنلمّح إلى ضرورة أن ينهي الضيف زيارته، نلجأ إلى اسم جون؛ أما في البرتغال، فنلجأ إلى اسم ميغيل Miguel، أو قد تُختصر العبارة ببساطة فتصبح «الميغيل». يُختصر الاسم الأخير بالإنجليزية الدارجة إلى مقطع واحد، مايك، بينما في الإسبانية يُضاف إليه مقطع فيصير ميغليتو Miguelito. هل يمكن لأي من الاسمين أن يكون مرادفاً للآخر؟

أقل ما نستطيع فعله هو تجنب ترجمة الأسماء للمحافظة على هالة معينة للغة الأصلية وثقافتها. تترجم الإسبانية دائماً الأسماء الملكية وأحياناً أسماء المشاهير من عامة الناس (Thomas More/ توماس مور، يصبح Tomás Moro توماس مورو)، بينما ترجمة الأسماء بالإنجليزية تختلف من حالة إلى أخرى. الاسم الأول لشكسبير (وليم) يصبح Guillermo / غييرمو في الإسبانية، بينما الاسم الأول لـ سيرفانتس يبقى دائماً ميغيل بالإنجليزية. الإنجليزية تترجم كارلوس الخامس Carlos V وفيليبي الثاني Felipe II إلى تشارلز الخامس Charles V وفيليب الثاني Philip II على الرغم من أن ألفونسو الثالث عشر Alfonso XIII لا يصبح قط ألفونس Alphonse. ولأنني اعتدت سماع اسم قيصر غليوم الثاني Kaiser Wilhelm II كما هو يلفظ بالإنجليزية فيلهلم، ما زلت أرتبك قليلاً عندما أسمع اسم الإمبراطور وليم الثاني William II عندما ينطقها الأشخاص الذين انفصلوا في نهاية المطاف عن أعيان تلك الحقبة الزمنية. الاسم الأول لهتلر بالنسبة إلي كان دائماً هو أدولف Adolf لكن الآن بتُّ غالباً ما أرى كلمة أدولف Adolph وأسمعها آي – دولف dolf – ay. أفضّل عند ترجمتي إبقاء الأسماء على حالها كما هي واردة في النص الأصلي، وأعمد أحياناً إلى ترجمة الألقاب إن كانت تدل على قيمة وصفية ويمكن ترجمتها دون الإخلال بإيقاع القصة. من الأفضل ترجمة لوريل وهاردي Laurel and Hardy إلى الإسبانية إلى إل غوردو إي إل فلاكو El Gordo y el Flaco، على غرار الاسم الذي كان يطلقه الأطفال عليهما في أيامي: السمين والنحيل (تستهويني معرفة لماذا في اللغتين ترتيب الصفتين عكس ترتيب الاسمين). تحافظ الإنجليزية إلى حدٍ بعيد على الأسماء الرومانية، لكنها تسبغ عليها اللفظ والشكل الإنجليزي أي «أنجلزتها» (مثل إن رآها يوليوس قيصر فإنه حتماً سيلقي القبض عليها If Julius Caesar sees her he will surely seize her)، بينما في الإسبانية والفرنسية تتم «أسبنتها» و«فرنستها» (خوليو سيسر وجول سيزاغ – Julio César and Jules César). بالنسبة إلى أذني، تستخدم الإنجليزية الأصوات كما ينبغي سواء للأسماء الأجنبية أو الكلاسيكية. في الإنجليزية، غالباً ما تحافظ الأسماء الإغريقية على شكلها اللاتيني، حافظت الإنجليزية على

الاختصار cf. المأخوذ عن اللاتينية confer/ conferatur للدلالة على كلمة «راجع المصدر» مثل راجع هيرودوت cf. Herodotus.

أنهيت مؤخراً ترجمة رواية للكاتب الكولومبي خورخي فرانكو راموس عنوانها «روساريو تيجيراس». الاسم المستعار للشخصية الرئيسية روساريو هو تيجيراس (المقص) لأن باكورة سلسلة أعمالها العنيفة بدأت بخصي الرجل الذي اغتصبها باستخدام مقص أمها. كانت ترجمة اللقب الذي لازمها أمراً غريباً، وتركه كما هو أيضاً يحاكي بطريقة ما الأسلوب القديم الذي اتُبع في إطلاق الألقاب والأسماء المستعارة. لم يُكشف النقاب قط عن اسمها الحقيقي، مثل اسم الله، وعرفها الجميع باسم روساريو تيجيراس. لم يكن هناك ضرورة لترجمة الاسم المستعار لأنها تشرح في مطلع الكتاب سبب تسميتها بهذا الاسم.

على غرار مصطلحات معينة واستخدامات نحوية محددة، تعتبر الكلمات العناصر الأسرع عرضة وبشتى الطرق لنوع من صيرورة التطور الدارويني، إلا أن الاصطفاء الطبيعي هنا يميل وفق وجهة نظري بدرجة أقل نحو البقاء للأصلح، وبدرجة أكبر نحو نوع من التبسيط إلى أدنى مستوى ليصبح مفهوماً للجميع. يعتمد هذا بالطبع على ما يعتبره المرء الأصلح. سيعارضني الشعبويون على الأرجح حول هذه المسألة، لكنني دائماً ما اعتقدت أن مقولة «صوت الشعب هو صوت الله» ما هي إلا دعوة مفتوحة للإلحاد. وراء أي اعتبارات نوعية، ثمّة مسألة تغير الأزمنة، أيام مختلفة، طرق أخرى. ومثل شخص أسس مرابطه على جزيرة أوكتوجيناريا (المتاخمة لجزيرة باراتاريا)، اكتشفت أنني وبأكثر من طريقة ما يمكن أن نسميه «ناشط عفا عليه الزمن». خلال حياتي، تغيرت كلمات واستخدامات محددة أو اندثرت أو ظهرت كلمات واستخدامات جديدة. ألاحظ باطراد أن كلمة « gonna سوف» أصبحت استخداماً قياسياً في الخطابات الرئاسية وكلمات كبار المسؤولين والأعيان، وأتساءل كيف سيكون وقعها لو أنها قيلت في عام 1941، لو أن فرانكلين روزفلت قال «We're gonna win the war سننتصر في الحرب». يشغلني كذلك كيف أطاحت هذه الكلمة بكلمة «gwine» التي استخدمها (أيضاً العم ريموس؟) وكلمة «gone» التي استخدمها (أيضاً لوجو؟) أو

الكلمة البريطانية «gene». لا بد من وجود أجوبة بناءً على إحدى نظريات اللسانيات.

حُشر المترجمون إذاً في موقع صعب حيث عليهم الاحتراس وعدم ربط ترجمتهم بفترة حياتهم، فإن كان العمل الذي يعكفون عليه معاصراً، فلن تكون طامة كبرى إن صار النص الأصلي نصاً مكتوباً بلغة مهجورة حتى قبل انتهاء الترجمة. الكلمات تهرم، مثل أوراق الشجر، تذوي وتصفرّ وتتساقط بعد فترة، على الرغم من أن اللغات، مثل الأشجار، تُقسم إلى أجناس مختلفة وقد تحافظ كلمات في لغة ما على معناها لفترة أطول من اللغة التي تترجم إليها. عندما أترجم عملاً «كلاسيكياً»، أحاول إيجاد ما يمكن تسميته كلمات «دائمة الخضرة». أثناء ترجمة ماشادو دو أسيس، الذي تحل كتاباته بالبرتغالية في مرتبة ثانية بعد كتابات كامويس من حيث المتانة (ربما تفوق على كامويس، إن أخذنا بعين الاعتبار أنه روائي)، أحاول العثور على كلمات تصلح لأيامه وأيامنا على حد سواء، ونأمل أن تبقى بعد زمنينا. لا ينبغي أن تكون الترجمة الجيدة لسيرفانتس، وهي شحيحة، معاصرة جداً فتُهمل في نهاية المطاف لأن سيرفانتس يُقرأ اليوم بالإسبانية بلغة معتدلة فقط. قد تبدو ترجمة مونترو لسيرفانتس مهملة لأنه استخدم لغة معاصرة، أما بوتنام فلا يمكن إهمال لغته. لا يكمن خطأ مونترو في إيجاد كلمات دائمة الخضرة كتلك التي استخدمها سيرفانتس. ربما لم يسمح المترجم لسيرفانتس بأن يقوده لغوياً. اكتشفت لدى ترجمة ماشادو دو أسيس وغارسيا ماركيز أن الأساطين يمكّنوك من نقل نثرهم إلى أفضل ترجمة ممكنة إن سمحت لهم بقيادتك من خلال تعابيرهم، وتبعت طريقتهم وسلكت طريقهم، فطريق الأساطين هي الطريق الوحيد السالك، وإن أطلت التفكير، ضللت الطريق.